بلاد السودان في كتب الجغرافيين
والرحالة العرب والمسلمين

يمكن تقسيم المصنفات العربية القديمة المتعلقة ببلاد السودان الى ثلاث أنواع تناولت شؤون هذه البلاد وسلطت الضوء على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والروحية فيها، وأول المصنفات هي الكتب الفقهية وخاصة الفتاوى التي أصدرها العلماء العرب لصالح تلك البلاد بطلب من أولياء الأمور غالبا، وثاني المصنفات هي النصوص التاريخية التي تعرضت لتاريخ المماليك الإسلامية في بلاد السودان، وثالثها نصوص الجغرافيين والرحالين العرب والمسلمين وما تضمنته من وصف لتلك المناطق.

ولم ينل هذا الصنف الأخير حظه من الاهتمام والدراسة من الباحثين العرب خاصة، بالرغم مما اكتسته بلاد السودان من أهمية جيوستراتيجية في الفضاء الإسلامي باعتبارها فضاء للتنافس بين حضارتين عالميتين عريقتين هما الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الاوربية اللتان واجهتا عند دخولهما لهذه الابلاد بنية اجتماعية محلية عصية على الاختراق مما مثل امتحانا حقيقيا لكلا المركبين الحضاريين (الأوربي والإسلامي) في علاقة المحلي بالوافد، فبقدر ما امتحنت صلابة البنى الاجتماعية المحلية ببلاد السودان في مدى قدرتها على الصمود في وجه الوافدين بقدر ما امتحنت الحضارتان الوافدتان في مدى قدرتهما على التأثير واحتواء البنى المغايرة واستيعابها واذابتها في خيارات كلية غالبة،

ودون الرجوع الى السياق ومسار العلاقة بين الطرفين الإسلامي والسوداني (الذي اطلعتم عليه في محور العلاقات من قبل) فإن بلاد السودان قد غدت جزءا لا يتجزأ من بلاد الإسلام منذ العصر المرابطي وأضحت جديرة باهتمام العرب والمسلمين خاصة وان القواسم المشتركة بين الانسان العربي والانسان الافريقي لا سيما الدين واللغة الى حد كبير جعلت الجهل بتلك البلاد جزءا لا يتجزأ من الجهل بالذات

اما المدونات الجغرافية العربية فقد اكتملت وبلغت قمتها خلال القرن الثامن الهجري بعدما مرت بمرحلتين:

المرحلة المشرقية التي ازدهر التأليف فيها في القرنين الثالث والرابع الهجريين عن طريق المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية؛ ثم **المرحلة المغربية** حين تسلم المغاربة المشعل واستأنفوا التأليف وتميزوا من خلال نمط الرحلة فأنضجوه حتى صار فنا قائما بذاته

لقد مثلت المرحلة الأولى المشرقية محطة إرساء معالم المعرفة الجغرافية العربية موضوعا ومنهجا، ومثلت المرحلة الثانية المغربية جهود كتلة الغرب الإسلامي من أجل توحيد الجناح الافريقي والجناح الأوربي الاندلسي وصهرهما في بوثقة استطاعت ان تحاصر الوثنية افريقيا والمسيحية أوروبيا

وعلى العموم فإن المصادر الجغرافية المعنية هنا قد انقسمت الى اقسام عدة منها الجغرافيون الذي عاينوا بلاد السودان او نقلوا عن المخبرين والتجار ومنها المصادر ذات الطابع التاريخي التي نقلت عن الجغرافيين ونقلت ما ورد من روايات شفوية او من مصادر مفقودة وصنف اخر هو المصادر المحلية خاصة ما دونه العلماء.

تحديد بلاد السودان :

احتل تحديد البلدان موقع الصدارة في كتب الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين، ومثل أحد المسائل الأساسية المتناولة في مصنفاتهم واستمد تحديدهم اما من التراث الأجنبي الوافد أو المجلوب من الشرق ومن الغرب والقائم على التحديد الفلكي القائم على نظرية الأقاليم السبعة المكونة للمعمور من الأرض في تصور أصحابها ، أو استمدوه –كخيار ثان- من صناعة محلية تمثلت في التحديد الوصفي وهو نظام خاص بالعرب ويعتبر من ابداعاتهم وإضافاتهم المحلية الناتجة عن تفاعل وتأليف بين عناصر معرفتهم الذاتية وما استفادوه من تراث الأمم المجاورة.

وقد وقع جانب مهم من الجغرافيين العرب والمسلمين المنبهرين بالفكر البطليموسي (نسبة إلى بطليموس) تحت تأثيره عند إقدامهم على صياغة استراتيجيا خيار تحديد البلدان، فاختاروا المقياس الموروث القائم على أسس طبيعية وتغاضوا عن تبني وتطوير ما ظهر من

محاولات غيرهم التحرر من النماذج القديمة وتخطيها لتأسيس خيارات جديدة تراعى فيها الأبعاد البشرية المتحركة النامية؛ وفي هذا التجاذب بين قطبي التقليد والتجديد في مسألة تحديد البلدان يمكن التمييز عند الجغرافيين العرب والمسلمين في تحديد بلاد السودان بين قسمين تحديد وفق النظام الفلكي وتحديد وفق النظام الوصفي.

1. تحديد بلاد السودان وفق النظام الفلكي:

تمتد بلاد السودان وفق رأي **الإدريسي** طولا إلى بداية الإقليم الثالث وتمتد عرضا إلى الجزء الثالث من كل إقليم فقد قال **"أهل هذا الإقليم الأول والثاني وبعض الثالث لشدة الحر وإحراق الشمس لهم كانت ألوانهم سوداء وشعورهم متفلفلة بضد أهل الإقليم السادس والسابع"** (نزهة المشتاق، مج 1/ص. 18).

أما **ياقوت الحموي** فيقدر امتداد بلاد السودان على عرض الإقليم الأول لتصل إلى بلاد الهند، فقد قال **"أرض السودان وهي ما بين البربر إلى الهند"** ثم أضاف **"الإقليم الأول فهو من المشرق يبتدئ من أقصى بلاد الصين ... وينتهي إلى بحر المغرب ... وقع فيه ... من بلاد المغرب تبالة ومدينة صاحب الحبشة جرمي ومدينة النبوة دمقلة وجنوب البرابر وغانة من بلاد سودان المغرب"** (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج.1، ص. 18-29 بتصرف).

وفي تحديد **ابن سعيد** نستنتج وقوع بلاد السودان أسفل الصحراء الكبرى وتتصل بلاد السودان عنده حتى الجزء السابع من الإقليم الثامن، فقد قال **"والجزء السابع فيه ينتهي بر السودان المتصل من أقصى الغرب بجبلة الندامة"** (ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص. 80-81).

2. تحديد بلاد السودان وفق النظام الوصفي:

اتخذ النظام الوصفي شكلا أولا تمثل في تحديد بلاد السودان من جهاتها الأربعة تحديدا جغرافيا واضحا وشكلا ثانيا تمثل في تحديدها عن طريق مكوناتها البشرية الحالة بها، فشغل الكتل البشرية فضاء معينا يجعله محددا بكيفية تقارب التحديد الجغرافي الواضح.

ومن أبزر تحديدات الجغرافيين العرب لبلاد السودان وفق النظام الوصفي، مع التنبيه للأخذ بعين الاعتبار اختلاف عصورهم، نشير إلى كل من **الاصطخري وابن حوقل والمقدسي والقزويني**.

فتحديد **الاصطخري** يفيد عزلة بلاد السودان عن بقية البلاد المجاورة من الجهات البرية الثلاث لأسباب طبيعية، فيقول **"وأما جنوبي الأرض من بلاد السودان فإن بلد السودان الذي في أقصى المغرب على البحر المحيط بلد مكنف** (يعني أحيط به من جوانبه ... والكنيف الخلاء وكله راجع إلى الستر حسب ابن منظور في لسان العرب**) وليس بينه وبين شيء من الممالك اتصال غير أن حدا له ينتهي إلى البحر المحيط وحدا له إلى برية بينه وبين أرض المغرب وحدا له إلى برية بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات وحدا له إلى البرية التي قلنا إنه لا يثبت فيها عمارة لشدة الحر"** (إبراهيم بن محمد الاصطخري، المسالك والممالك، ص. 19). ويضيف عن مساحتها أنها تتسع غربا وتضيق شرقا، حيث قال **"وبلغني أن طول أرضهم نحوا من سبعمائة فرسخ غير أنها من البحر إلى ظهر الواحات أطول من عرضها"** (الاصطخري، ص. 19).

أما **ابن حوقل** فلم يضف إليه أمرا جديدا لكنه خالفه في قياس مساحة البلاد، فهي في نظره أوسع، إذ قال **"وطول أرضهم ألف فرسخ في نحوها عرضا"** (أبو القاسم ابن حوقل، صورة الأرض، ص. 16).

أما **المقدسي** فوسع بلاد السودان لتشمل شرق افريقيا مخالفا تحديد سابقيه، فهي في نظره تمتد من المحيط الأطلسي جنوب المغرب إلى شواطئ شرق افريقيا دل على ذلك ذكر وقوع المحيط الهندي بين بلاد السودان وبلاد الصين، وحمل رأيه بداية الاعتناء بالجانب البشري في تحديد البلدان، فقد قال **"إعلم أنا لم نرى في بلاد الإسلام إلى بحرين حسب أحدهما يخرج من نحو مشارق الشتاء بين بلد الصين وبلد السودان"** (المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص. 42).

فحدود بلاد السودان في نظر المقدسي تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى المحيط الهندي شرقا ومن إقليم المغرب ومصر شمالا إلى نهاية العمارة جنوبا، إذ قال **"وأما أرض**

السودان فإنها تتاخم هذا الإقليم (المغرب) ومصر من قبل الجنوب وهي بلدان مقفرة واسعة شاقة" (المقدسي، أحسن التقاسيم، ص. 224).

أما **القزويني** فقد صاغ حدود بلاد السودان وفق معيار جغرافي بحث اكتفى بذكر حدود الجهات الأربعة موافقا تحديد الاصطخري، فقد قال "**هي بلاد كثيرة وأرض واسعة ينتهي شمالها إلى أرض البربر وجنوبها إلى البراري وشرقها إلى الحبشة وغربها إلى البحر المحيط**" (زكرياء بن محمد القزويني، كتاب آثار البلاد وأخبار العباد، ص. 15).

صفوة القول ان الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين قد اولوا عناية بالنظامين الفلكي والوصفي عند تحديد بلاد السودان لإدراكهم الحاجة الماسة الى كليهما، وغلب التركيز منهم على النظام الوصفي نظرا لأصالته وواقعيته ونفعيته وهي الخصائص التي ارتقت به الى مستوى الاقناع الذي حظي به ومكنته من احتلال الصدارة ضمن مؤلفات الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين وفي الوقت نفسه ثراء واضافة للتراث الإنساني.